Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

أدب الطفل : بين قلق التغريب ورهان التجريب

Child literature: between the anxiety of Westernization and the bet of experimentation

حسين مبرك : Hussein Mubarak

جامعة محمد بوضياف- المسيلة مخبر سيميولوجيا المسرح

Mohamed Boudiaf University - Messila College of Letters and Languages Department of Arabic Language and Literature

Theater Semiology Laboratory .

hocine.mebrak@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام : 2020-11-24 تاريخ القبول : 2021-04-05

ملخص:

ما من شكٍّ أنَّ الاهتمام بالطفل والعناية به، هو غاية ما تتطلع إليه الأمم الناهضة الحية، وتسعى إلى تحقيقه، وتجسيده على أرضع الواقع، من خلال ما تسخره من أدوات ووسائل وهياكل تربوية وتعليمية وثقافية، فتعمل جاهدة على تكثيف جهودها وتوجيهها نحو الإعداد التربوي والبناء الثقافي للطفل ولاسيما في هذه المرحلة العمرية الحساسة، لأن أطفال الأمس هم شباب اليوم، وأطفال اليوم هم شباب الغد وشباب اليوم هم رجال المستقبل.

الكلمات المفتاحية: الطفل، التربية ، الثقافة، الوعي، التعليم

Summary:

There is no doubt that caring for and caring for the child is the goal of what the rising living nations aspire to, and strive to achieve, and embody it on the ground of reality, through the tools, means, and educational, educational and cultural structures that it uses to intensify its efforts and direct it towards educational preparation And the cultural structure of the child, especially in this sensitive age stage, because yesterday's children are the youth of today, and today's children are the youth of tomorrow, and today's youth are the men of the future

Key words: child, education, culture, awareness, education

1. مقدمة:

لم يعد الطفل في هذا العصر متلقيا سلبيا، بل استحال - بفعل التأثير القوي لوسائل التواصل الاجتماعي - إلى ناقد ومستكشف ومتفاعل يلتقط البرامج ويتأثر بمضامينها، ويتجاوب مع مختلف التجارب الحياتية ومقاييسها، في ظلّ غياب البديل الذي يلبي حاجاته ويستجيب لرغباته واهتماماته وتطلعاته، ومن ثمَّ فإنَّ الكتابة للطفل تصطدم بتحديات ومشكلات، باعتبار أن هذا اللون من الأدب هو فن وإبداع ومهارة مولِّدة للتفكير ومغذية للخيال ومقومة للسلوك والأخلاق بانية للشخصية، ومن هذه التحديات التي يواجهها، هامشية القراءة في حياة الطفل، في نظر الرأي العام العربي، فأدب الطفل لايحظى بالاهتمام من قبل المؤسسات التعليمية والمراكز الثقافية ووسائل الإعلام، بالإضافة إلى غلبة الثقافة الاستهلاكية التي باتت تسيطر على حياة الفرد والأسرة والمجتمع، وغياب المكتبات التي تسهم في تعزيز ثقافة الطفل، وإتاحة الفرصة للناشئة للتدرب على المهارات والسلوكات

وتحت وطأة هذه الظروف ، لجأ الطفل إلى ثقافة الترفيه واللهو في فضاءات أخرى، التي كان لها أثر كبير في سد الفراغ النفسي الذي يعيشه، ومن ثمَّ فإن المكانة غير المركزية لأدب الطفل في الثقافة العربية، هي جزء من الإشكالية التي أدت إلى غياب الهيئات والمؤسسات الرسمية التي ترعى هذا التخصص، وتعنى برسم الخطط وصياغة المشاريع التي من شأنها تعزيز أدب الطفل في المجتمع، فضلا عن أزمة المقروئية ، وانشغال الأسرة العربية بأسباب العيش وبالمقابل لو تأملنا تجربة أدب الطفل في الغرب، لوجدنا اهتماما كبيرا بهذا اللون من الأدب، من خلال الإصدارات الموجهة لهذه الفئة المجتمعية، والعناية التي يوليها المتخصصون لها، فضلا عن حضور هذا الأدب في وسائل الإعلام

والتواصل الأخرى، ولعلّ ما يبرر هذا الحضور اللافت، هو ارتفاع منسوب الوعي الجمعي الذي لا يتخلى عن فعل القراءة تحت أي مبرر.

بعد كل هذا، كيف لنا أن نؤسس جيلا قارئا ؟ متى ندرك أن الأطفال هم لبنة المجتمع وثروته في يوم ما ؟ كيف نؤسس جيلا قارئا مثقفا، متمسكا بهويته، يحترم ذاته وثقافته، ويعرف حدوده؟

البعد الحضاري والقيمة الجمالية :

لعلّ مفهومنا القاصر لأدب الطفل، وعدم مركزية الاهتمام بطرح رؤية الأطفال للحياة وللعالم والحجر عليهم، هو من السلبيات التي شوّهت حياتنا الثقافية وأزرت بعقولنا ، وكل المحاولات -على قلتها- التي صبَّت في هذا الاتِّجاه، إنَّما هي تعبر في أغلبها عن الكاتب، ولا تترجم عالم الطفولة، ومن ثمَّ فنحن في حاجة إلى مبدعين حقيقيين في هذا التَّخصص، يعرضون أفكارا جديدة وجميلة، لا إلى من يتناولون موضوعات مستهلكة ومبتذلة، أو ممن يعتمدون على قراءات أجنبية، لأن من يكتب للطفل لابد أن يكون فنَّانا مُبدعا، يغوص في عالمه، ويكون قريبا من ممارساته متفهما لسلوكاته وتصرفاته، بل ينبغي أن يكون طفلا كبيرا، ومن الأشياء الصادمة في هذا المجال أن دراسة لمنظمة اليونسيف أوضحت نتائجُها أنَّ نصيب الطفل من الإصدارات في العالم العربي، لا يكاد يصل إلى نصف كلمة على امتداد أعوام"، بل وتشير دراسات أخرى أنه في مطلع التسعينات، كان حصول الطفل العربي على سطرين كنصيب مما يُكتبُ له مقابل ثلاثة عشر كتابا للطفل الأمريكي

إنه فن أدبي ينبني على أساليب مختلفة من النثر والشعر، ظهر في القرن السابع عشر بأوربا، ثم ذاع في أنحاء العالم، وتطور في العصر الحديث، من خلال الكتب والإصدارات المتخصصة في شكل أعمال قصصية ومسرحية وشعرية، ينضاف إلى ذلك الدور الفاعل الذي لعبته وسائل النشر الالكترونية في ترقيته

ويكتسي أدب الطفل أهمية بالغة في تنمية الثروة اللغوية لدى الطفل، وإثراء حصيلته اللغوية ومعجمه اللغوي، وتنشأته نشأة سليمة متوازنة على المستوى الروحي والسلوكي، ومعالجة بعض العُقد والترسبات كالخوف والخجل والانطواء والسلبية، والإسهام في خلق الفكر الإبداعي والاستكشافي عنده، وطَبعه على الجدَّة والإيجابية، وترويضه على السلوكات السَّويَّة التي تصنع منه شخصية متزنة في التفكير والحوار والتواصل إلى جانب تنمية قدراته على تذوق كل ما هو جميل، وتعزيز ثقته بنفسه، وغرس عادة القراءة فيه، وفتح أبواب الثقافة والمعرفة أمامه، ومثلُ هذه الأهداف، لا تتحقق إلا من خلال الاعتداد بالكتاب وغيره من الوسائط والوسائل الثقافية لكن يبقى الكتاب هو الأداة الفعالة في أداء الدور التثقيفي والتعليمي والتربوي والإصلاحي ولاسيما الكتاب المطبوع الذي يغري الطفل ويجتذبه، ويحمله على القراءة والتحصيل المعرفي من خلال ما يعرضه من مادة، في صورة نصوص قصصية ومسرحية، تتيح للأطفال المجال للتفكير والتأمل والتساؤل والتهذيب، وتمنحهم فرصة لاكتساب طرق وأساليب التعامل مع الحياة بشكل فاعل وإيجابي، وغرس القيم الأخلاقية والإنسانية فيهم، وشحنهم بطاقات تمكنهم من تذوق الجمال واستيعاب القيم والمفاهيم الصحيحة، بل إن الخبراء في مجال القراءة أشاروا إلى أن أدب الطفل قيمة تضمن تأمين العلاقة بين النمو الجسمي والفكري والإدراكي عند الطفل، ويحافظ على التوازن في شخصيته، وضبط معاملته مع الآخرين، ويسعفه في صياغة مفاهيم صحيحة عن الظواهر والأحداث والعلاقات، من خلال كتب الرحلات والسير والتراجم والتاريخ واللغة والأناشيد ..وغيرها من وسائل التثقيف والبناء التي تحقق له ذاته وكيانه، وتشعره بوجوده، وتمده بالخبرات التي تؤهله للنمو العاطفي والفكري، ومن ثمَّ بات من الضروري الاهتمام بأدب الطفل ضرورة ملحة ، باعتماد أسس جديدة في التأليف والتصنيف والنوعية والإفادة من التجارب العالمية، لبناء جيل واع ومتحضر، قادر على تحمل مسؤولياته والنهوض بواجباته

ولقد أدرك المربون أهمية هذا اللون من الأدب في تربية الطفل، من خلال تعريفه بتراثه الأدبي ومرافقته في فهم النفس البشرية، وتنمية خياله وقدراته على الإبداع والابتكار، فضلا عما توفره له من ترفيه وتسلية وتنمية الاتجاهات الإيجابية فيه، للإقبال على القراءة، وغرس القيم والسلوكات الإيجابية في طباعه وشخصيته.

وحقيق بالذكر أن أدب الطفل ، لا يزال يراوح مكانته، ويبحث عن موقع له ضمن خريطة الأجناس الأدبية الحديثة في البلاد العربية، وهو ما ذهب إليه أد الباحثين بقوله:" على الرغم من

شيوع اصطلاح أدب الأطفال وقبول هذا الاصطلاح في مجالات البحث العلمي وفي دوائر المعارف والمراجع الأساسية، إلا أنه لا يمكن أن نفصل هذا الأدب المتخصص والموجه للأطفال عما يسمى بالأدب العام أو أدب الكبار وأن هذا الأدب العام، يبقى مصدرا غنيا لمواد وكتابات يتم اختيارها للأطفال.. فكثيرٌ من الكتابات التي لم توضع أصلا للصغار، قد أقبل عليها الأطفال لأنَّها وجدت هوى في أنفسهم، ولأنَّ هذه الكتابات استطاعت أن ترضي حاجاتهم ورغباتهم وعلى مختلف مناحي نموهم المختلفة.."[1] .. ومنه فإنَّ الكتابة للطفل هي عمليةٌ محفوفةٌ بالمخاطر والمصاعب، لأنَّ عالم الطفولة عالمٌ متغيرٌ متطورٌ متجددٌ، ومن ثمَّ فإنَّ هذه المهمة، تتطلب خبرة واسعة، ومعرفة واعية، برصد حركة النمو النفسي والعقلي والاجتماعي للطفل مثلما تتطلب رؤية فنية ثاقبة، وإحاطة بخصائص الطفل الفكرية والمزاجية والعاطفية والسلوكية، الأمرُ الذي يمكنُ الكاتب من إيصال رسالته ومضامينه إلى المتلقي، وهو الطفل.

تجربة أدب الطفل في الجزائر:

لعلَّ قراءة لتجربة أدب الطفل في الجزائر، تبين أنه في مرحلة الإرهاص والتخلق، ولم يستو على سوقه بعد رغم أنه عرف بعض المحاولات التي تسعى إلى تقديم مادة للطفل تستجيب لاهتماماته، وتلبي حاجاته النفسية والعاطفية، ولم تظهر هذه التجربة في الجزائر إلا بعد الاستقلال مثل ما نجده في محاولات: "محمد الأخضر السائحي"، "ومحمد عبد القادر السائحي" ، و"محمد ناصر"، و"بوزيد حرز الله "، و"سليمان جوادي" ، وفي مجال القصة للأطفال، برز "رابح خدوسي" و"جميلة زنير"، و"محمد الصالح حرز الله" ،و"عبد العزيز شفيرات" .. لكنها ظلت في مجملها قاصرة عن بلوغ الأهداف المرجوة من هذا الأدب ينضاف إلى ذلك أن هذه التجربة في بلادنا تفتقر إلى منهج واضح ومتكامل، إلى جانب قلة الخبرة والافتقار إلى المتخصصين من ذوي القدرة والكفاءة، وأهل التخصص في هذا الشأن. يقولُ أحدُ الدارسين:" إننا نريد أن نرفع صوتنا للمطالبة بتلقين الطفل أولا ثقافته الوطنية، من خلال اطلاعه على التراث الشعبي بكل ما في هذا التراث من قيم إيجابية ومظاهر بطولية تعينه على الصمود أمام هزات هذا العصر" [2] ينضاف إلى ذلك أننا لا نملك صحافة أدبية تهتم بثقافة الطفل وتعنى به، وتخصص لذلك مجلات وجرائد تترجم ميولاته، وتعبر عن طموحاته ورغباته وعالمه الطفولي، والأمر نفسه ينسحب على القنوات الإعلامية التي لم تهتم هي -الأخرى - بثقافة الطفل وتربيته، حيث لا نكاد نجد أدباء وكتابا يكتبون للطفل، في مجال القصة والشعر والرواية أو الحكايات الشعبية، وحتى القصص المترجمة، بل لا نكاد نذكر أسماء تختص بالكتابة للطفل في الجزائر، فمن ذا من شعراء الجزائر من خص الأطفال بديوان شعر يشتمل على أناشيد ومحفوظات وقصص، تطرح مضامين إنسانية، أو تعالج قضايا وموضوعات أخلاقية وتعليمية ووطنية، تحث على المحبة والتواضع والتعاون والاستقامة وحسن الخلق، واحترام الآداب العامة

الآليات والوسائل : من الفنون النثرية التي لها أثر كبير في ثقافة الطفل، القصة، وهي قالب سردي فني وجمالي له تأثير فعال في صياغة شخصيته وتشكيل سلوكاته وبرمجة حياته وخياراته سواء تلقاها من خلال حكايات شفهية، أو عبر حكايات مكتوبة.. إنها أداة استراتيجية في تنمية عقله ووجدانه، كما تسهم في تربيته وتطوير مهاراته وكفاءاته القرائية واللغوية والخيالية وتوسيع مداركه وآفاقه، وتنمية قدراته التعبيرية وثروته اللغوية والفكرية، الأمر الذي ينعكس إيجابا على على وجدانه ووعيه، وهي إلى ذلك تربط الطفل بعالمه المتخيل والوهمي، من خلال ما تجسده الوسائط، وتعكسه التقنيات المستخدمة في التعبير والتصوير، حيث تبرز الحيوانات الأليفة وغير الأليفة، التي تستهوي الطفل وتجتذبه، كالقطة والعصفور والأرنب والفراشة والجمل والأزهار والعرائس ..باعتبار أن النصوص تخاطب براءة الطفولة، ومن ثم ينبغي أن تعتمد النصوص الموجهة إلى الطفل أيا كان نوعها ، قصة أو مسرحية أو قصيدة شعرية على لغة بسيطة عفوية وطريقة سردية مبنية على عنصري التشويق والمفاجأة، كما يركز الكتاب والمبدعون على الجانب الفني الذي يرفق النصوص بالصور والرسوم التي تسهم في إدراك الطفل للمعنى العام للنصوص

مساره وأطواره:

ممًا لاشكَّ فيه أنَّ هذا الأدب قد عرف تطورا ملحوظا ولافتا مع تطور التعليم، على جميع المستويات: مستوى المضمون والشكل، والأسلوب والبعد، وبات محل اهتمام من قبل المجتمعات الحديثة التي أدركت أنه جزء من ثقافة الطفل ووعيه، واستطاعت التكنولوجيا الحديثة أن توفر كثيرا من الوسائل والوسائط والأدوات التي يسرت أسباب الثقافة والقراءة، واتجهت دور الثقافة ومراكز التعليم إلى الاهتمام بأدب الطفل، وارتقت به، فتنوعت أغراضه وموضوعاته، في الشعر القصة والمسرحية والأسطورة والحكاية الشعبية رغم أن كثيرا من الكتاب العرب، ظلوا في نصوصهم ومدوناتهم يعتمدون على القياس والنقل من الآداب الأجنبية، وذلك راجع إلى نقص الخبرة والمعرفة بشروطه، وأصوله المعرفية والمنهجية، لكن ما إن انقضى الثلث الثاني من القرن العشرين، حتى بدأ أدب الأطفال ينتزع اعتراف الهيئات الدولية العلمية والأدبية به، وبات مادة لها حضور في الجامعات، وصار الخبراء والأكاديميون وأساتذة الجامعات يعنون بهذا التخصص، ويرسمون مناهجه، ويصوغون شروطه واتجاهاته، ويحددون خصائصه وأجناسه واستطاعت بعض الكتاب أن يتحرروا من التقليد ومحاكاة النتاج الغربي، وأخذت طلائع التجديد تبرز في كتابات بعض الكتاب العرب، من أمثال " سليمان العيسى"...وقد استطاع هؤلاء أن يتخلصوا من الترجمة والنقل من اللغات الأجنبية، و التأصيل لأدب الطفل العربي، أدب له خصوصيته وأهدافه ، بغرض بناء إنسان المستقبل، الذي يشعر بانتمائه وهويته، ويتصالح مع ذاته، ويتفاعل مع واقعه المعيش.

ولعل أبرز مظهر للتجديد طرأ على أدب الطفل على مستوى المضمون،أن الشخصية الرئيسية لم تعد ماثلة في شخص الحاكم ، بقدر ما هي شخصية عادية من عامة الناس، مرتبطة بالقضايا العادلة، وأن التاريخ ليس من صنع الفرد، ولكنه من صنع الجماعة، وبات هذا الأدب مادة تستهدف غرس قيم الحرية والديمقراطية في نفسية الطفل، بالإضافة إلى محاولات جادة من قبل لفيف من الكتاب حاولوا تجديد القصص التراثية، وربطها بروح العصر.

خصائصه وطوابعه :

حاول المجددون والمتخصصون إدخال عناصر التجديد على أدب الطفل، وتكييفه مع معطيات العصر، من خلال عقلنة القصص، واستبعاد الجانب الخرافي منه، واعتماد اللغة التي تناسب سن الطفل، وانتقاء الموضوعات التي تستحثهم وتحفزهم على الاستكشاف والاستطلاع ، وترغبهم في حب العمل والعلم ونبذ التسلط، ورفض الاستبداد والتطرف .

المستوى النفسي : من التحديات التي تواجه الكتاب في هذا التجربة ، مشكلة التخصص وهي خاصية تتيح لمن يتصدى للكتابة في هذا المجال أن يبدع ويجدد، وحتى يتجسد هذا الهدف الفني، لابد أن يكون الكاتب أو الأديب عارفا بنفسية الطفل وميوله ، مدركا لخصائصه العقلية والنفسية والوجدانية، فليس ما يكتب للكبار يصلح أن يكون مادة للصغار، إلا أن يكون ما يُكتبُ لهم يتوخى أن يكون هؤلاء الأطفال رجالا كاملين ناضجين، رغم أن هذا المنحى من شأنه أن يجعل الطفل يعيش سنا أكبر من سنه الحقيقي وربما ورثه اختلالا في طبعه، واضطرابا في نفسيته " وبذلك يؤخذ على النظرية القديمة التي كانت تعتبر الطفل رجلا صغيرا، وبذلك تعده لهذه المرحلة حتى في طفولته "[3]

المستوى الاجتماعي : من الخصائص التي ينبغي أن ينطبع بها أدب الطفل، ويتمثلها الكاتب في نصوصه ومدوناته، الخاصية الإنسانية، ذلك أن الطفل في حاجة ملحة ودائمة إلى توجيه وإرشاد لبناء شخصيته بناء سويا متزنا، ومن ثمَّ يعمد المتخصصون والخبراء إلى استقاء مادة نتاجهم من الواقع الاجتماعي المعيش الذي يواكبه الطفل، إذ كلما كان النتاج والإبداع متصلا بالواقع، كانت استجابة الطفل أكبر، بوصف هذه المادة التي تتضمنها النصوص نتاجا يلبي رغباته، ويعبر عن اهتماماته

المستوى التعليمي : كثيرة هي الكتب التي تؤلف ، باعتبارها مادة موجهة إلى الأطفال، غير أنها كتب لا لاتندرج ضمن التأليف المدرسي والتربوي، وإنما هي كتب معدَّة للقراءة والمطالعة تستهدف تثقيف الطفل وتوعيته، وتعريفه بعوالم مختلفة، تستهويه، وتثير اهتمامه، وتجلب انتباهه، وتشبع فضوله، وتفتح أمامه أفقا يصله بعالم الحيوان والإنسان والنبات

المستوى المعجمي : يتعين على كل من يمتهن الكتابة للطفل أن يتخير اللغة المناسبة التي تساعد الطفل على تفهم النصوص واستيعابها والتفاعل معها، وأن يتوسل بأسلوب يتماشى مع ملكاته وقدراته العقلية والنفسية، وأن يتجنب التعقيد والتوعر والغموض، حتى يتمكن من فهم الرسائل المبثوثة في ثنايا الكتابة وإدراك دلالاتها وأبعادها، وهناك فريق من الدارسين والباحثين من يعمد إلى طريقة الشرح اللغوي لما يرد في متن النصوص، من ألفاظ وعرة، وتثبيتها في المتن، أو في آخر الصفحة، الأمر الذي يتيح للطفل فك ما هو مبهم وملتبس في ذهنه، " لأن الطفل في حاجة إلى أن يعرف البيئة المحيطة به، والأدب يساهم في تهيئة الفرص اللازمة لتلك المعرفة، حيث يقدم مجموعة من الخبرات، فيها حكمةُ الإنسان وآمالُه وطموحاتُه وأخطاؤه ورغباتُه وشكوكُه والأطفال يميلون بصدق إلى أن يتذوقوا هذا السجل الحافل، وليس أدل على ذلك شغفهم بالاستماع إلى القصص التي تروى عليهم، أو يقرأونها، ومحاولتهم الجاهدة لفهم الكلمات الزاخرة بهذا السجل، وعن طريق هذه الخبرات التي يقارنها الأطفال بخبراتهم تتضح لهم حياتهم الداخلية وعلاقتهم بالآخرين "[4]

لذلك ينبغي أن يسهم هذا اللون من الأدب في إعداد الأطفال، وإمدادهم بالقيم التي تيسر لهم التكيف مع مجتمعهم، والتأقلم مع مختلف الظروف والعوامل التي تصنع حاضرهم وواقعهم وتهيؤهم للمستقبل وتصلهم بماضيهم، وتشحنهم بالحيوية والنشاط والتجدد والجاهزية والإقبال على الحياة " ويشغفهم ويعدهم إعدادا صحيحا للحياة العملية، بما يقدم لهم من معلومات ومعارف تمكنهم من السيطرة على عالمهم بعد أن اتضحت لهم جوانب مجهولة منه، وهم تواقون أبدا للسيطرة على هذا العالم، وتزداد حاجة الأطفال للأدب في عصر مثل عصرنا، تتكاثر فيه المسؤوليات ، وتغير أنماط الحياة اليومية بسرعة فائقة "[5]

تجربة أدب الطفولة في ميزان النقد :

إن الطفل هو ابن عصره وابن بيئته، تتحكم في إعداده وتنشأته قنوات ومنابر ومواقع تعمل كلها على صياغة شخصيته، وصقل قدراته وتربية ملكاته، وتنمية مواهبه، وتوسيع مداركه، سيما في هذا العصر، حيث أتيحت له كثير من الوسائط والوسائل التكنولوجية، التي لم يعرفها في القديم وبات " الطفل المعاصر مبهورا بحضارة العصر المادية على حساب الغذاء الروحي لوجدانه ويزيد في خطورة الأمر ما يشيع في العالم من استبداد سياسي وظلم اجتماعي وفقر اقتصادي وتخلف ثقافي "[6]، ورغم الحركة النشطة التي قامت بها دور الثقافة وبعض وسائل الإعلام في ترقية أدب الطفل، وتطوره، من خلال ما أصدرته من كتب ومجلات متخصصة في هذا الباب إلا أن المتأمل لهذه التجربة في البلاد العربية، يلاحظ تأخر ظهورأدب الطفل فيها مقارنة مع ظهوره وتطوره في الآداب الغربية، وتعتبر مصر رائدة بين البلدان العربية في هذا المجال، من حيث الكتب والإصدارات الموجهة للأطفال، من خلال ما ألفه أدباؤها وكتابها من كتب، في مختلف فنون النثر، كالقصة والمسرحية والحكايات والأناشيد " وإذا استعرضنا آخر إحصائية جرت في مصر العربية عن كتب الطفل في عام ألف وتسعمائة وسبعين وجدنا أن الكتب التي ألفت أو ترجمت للأطفال والشباب في السنوات العشر الأخيرة : من ألف وتسعمائة وتسعة وخمسين إلى ألف وتسعمائة وتسعة وستين، تزيد عن الألفي كتاب في موضوعات متعددة، مثل القصص والكتب الدينية والآداب الأجنبية والجغرافيا والرحلات والتاريخ والتراجم والدراسات الاجتماعية والصناعات والتكنولوجيا والطب والصحة والمسرحيات والتمثيليات والشعر والأناشيد والفنون الجميلة "[7]

وفي هذا الشأن، احتل " سليمان العيسى" موقع الصدارة، فيما نظمه وقدمه للطفل، بوصفه شاعرا كبيرا ملتزما بقضية وطنية قومية وإنسانية، وما كتبه في أدب الطفل، هو تجربة رائدة، استطاع من خلالها أن يفرض نفسه ووجوده بتفوق في هذا الاختصاص، وقد حاول من خلال تجربته هذه أن يغرس في الطفل العربي الشعور بالانتماء إلى الأمة العربية، رغم ما يؤخذ عليه من " أنه لا يتحدث فيما ينظمه بلسان الصغار، أو ينقل الموضوعات التي تدخل في نطاق تجاربهم، بل ينقل إليهم همومه هو وتجربته "[8]

ولعل في قصائده وأعماله الإبداعية التي نظمها للأطفال، ما يدل على هذه النزعة المتأصلة في نفسه، وهو القائل في مقدمة كتابه " ديوان الأطفال": " بالشمس والهواء والماء تتفتح أزهار الربيع... وبالموسيقى والحركة والغناء يتفتح الأطفال على كل جميل ورائع.. دعوا الطفل يغني بل غنوا معه، أيها الكبار دعوه يتفتح .. إن الكلمة الحلوة الجميلة التي نضعها على شفتيه هي أثمن هدية نقدمها له، لكي يحب الأطفال لغتهم، لكي يحبوا وطنهم، لكي يحبوا الناس، والزهر والربيع والحياة ..."[9] ، وأدب الطفل لا يقتصر على القصيدة أو القصة، ولكنه يشمل المعارف الإنسانية التي يصبها المبدع أو الباحث في قالب ملائم لعالم الطفولة، بل يتسع مفهومه ليشمل كل مادة علمية أو أدبية أو تربوية، تقدم للطفل وفق خصائص ومقومات محددة، تناسب عقلية الطفل ونفسيته، وهذا ما أشار إليه سليمان العيسى بقوله :"كل واحد منا يحمل في أعماقه طفلا يحب أن يغني ويقفز ويمرح "[10]، ومنه فإن أدب الطفل يعمل على تقديم الحياة للأطفال، في أبهى حلة وأجمل صورة بلغة سلسة منسابة، وأسلوب سهل، بحيث يخاطب فيهم دواعي التطور والتجدد والفهم والتفاعل معها، والأمل فيها، وهو ما ذهب إليه " سليمان العيسى "، حين سئل: لماذا تكتب للصغار، قائلا :"...إني لا أكتب للصغار لأسلّيهم، ربما كانت أية لعبة أو كرة صغيرة أجدى وأنفع في هذا المجال. إني أنقل إليكم تجربتي القومية.. تجربتي الإنسانية.. تجربتي الفنية..أنقل إليكم همومي وأحلامي.. يا أعزائي الصغار. وعندما تكبرون قليلا سترون أني لم أخدعكم، لم أضيع وقتكم الناضر الثمين بشيء تافه. إنكم أغلى عليَّ، وأعز عندي من ذلك "[11]، للإشارة فإن الكتابة للطفل فن يخضع لمعايير الإجادة الأدبية التي تخضع لها الكتابة للكبار، من حيث جمال التعبير وصدق الشعور وحسن الأداء، وجودة البناء والعرض، رغم أن أدب الطفل يرتبط بالمتلقي وبمرحلة زمنية معينة وبعمر المتلقي، وهذا ما ألمح إليه " سليمان العيسى" في مقدمة " ديوان الأطفال بقوله :[12]

مُنْذُ يَوْمَيــــــــــن
كانَ طفلٌ في التّاسـعَة
أَوْرَاقُ الخَرِيف المُتَنَــاثرَة
برجلـه الصَّغيـــــرَة

وَيُغَنِّـــــــــــــي:
وَرَقَاتُ تَطفــرُ في الدَّرب

وَالغَيْمَةُ شَقْرَاءُ الهُــدْب

وَالرِّيـــحُ أَنَاشـيـــدُ

وَالنَّـــهرُ تَجَاعـــــيدُ

ياغيمة، يا أمّ المَطَــــر

الأَرْضُ اشتَاقَتْ، فأَنْهَمري

الفَصْـــلُ خَريـــــفٌ

إن الاهتمام بهذا الفن الأدبي، هو عنوان الوعي الحضاري، ودليل على النضج العقلي، وعلامة على أن المجتمع بلغ سنَّ الرشد، لأن الأطفال في نظر "سليمان العيسى" هم" فرحُ الحياة ومجدها الحقيقي، لأنهم المستقبل، لأنهم الشباب الذي سيملأ الساحة غدا أو بعد غد، لأنهم امتدادي وامتدادك في هذه الأرض، لأنهم النبات الذي تبحث عنه أرضنا العربية "[13]

ونظرا لاهتمامه البالغ بأدب الطفل، سمي سليمان العيسى ب" شاعر الأطفال"، وله مجموعات شعرية منها:" ديوان الأطفال " و" المستقبل " و" النهر" و" الصيف والطلائع" و" القطار الأخضر" و" المتنبي والأطفال"، يقول :[14]

النُّور للجَميــــــع وَالحُبُّ للجَميــع

من زَهْـــرَة وَاحدَة لايُصْنُعُ الرَّبيـــــعُ

تَسَانَدي تَسَانَـدي، يَاوَحْدَةَ السَّـــوَاعد

غلَالُنَــا الخَضْـرَاءُ، والخَيْرُ وَالعَـطَــاءُ

لابُدَّ أَنْ يَكُـونَ للجَميـْـع

للإشارة، هناك من الباحثين والدارسين من اعترض على النهج الذي تبناه " سليمان العيسى" والقاضي بتحميل الصغار هموم الكبار وتجاربهم، وتسويق أفكار وقيم كبرى ، قد تثقل كاهل الطفل، وتتسبب في نفوره، بحكم أنها تفوق سنه ، وتتجاوز طاقاته وقدراته الوجدانية والنفسية والعقلية. يقول أحدهم :" لسنا على حق عندما نسحب عن الوطن جماله، ونحاصر الطفل بالهموم ونشعره بأننا نريده أن يكون جنديا، وتلميذا مجتهدا، ولايكون طفلا يعجن الطين ويلعب بالألوان...إن الكاتب حر في التعبير عن اعتراضه على الواقع الراهن وضيقه به، ولكن أن يطلب من الطفل أن ينتقم له منه، ويضع الوطن على كتفيه ثقلا وتجهما فقط، فهذا يضيع مهمة الثقافة والتربية التي هي مساعدة الطفل على النهوض والتفتح وتوسيع أفق شعوره "[15] ، ومن ثمَّ ينبغي لمن يتصدى للكتابة للأطفال، والولوج إلى عالمهم الداخلي والإحاطة بعالمهم الخارجي، أن يقرأهم كما يقرأ السِّفرُ، ويتفهم ما يصدر عنهم من تصرفات وسلوكات، ويتجاوب ويتفاعل مع ما يبدونه من رغبات وميولات وفضول، ويكتب لهم بلغة بسيطة سهلة في ألفاظها وتراكيبها ونظمها، مناسبة لشخصياتهم، بعيدة عن المجاز والكنايات والاستعارات والإشارات الضمنية والغرابة والرمزية في التعبير والتصوير، ويعنى بالخيال البسيط الذي تكون صوره حسية قريبة المنال، وهذا مالم تتوفر عليه كتابات سليمان العيسى في هذا الباب، حسب رأي بعض الدارسين، إذ لوحظ جنوحه إلى استخدام المعاني المجردة والألفاظ غير المألوفة، إلى جانب استعمال الرمز والمجازفيما يكتبه للطفل، يقول : " ربما تعمدتُ الرمز والصعوبة في الألفاظ والغرابة في بعض الصور، ربما كانت بعض العبارات فوق سنِّ الطفل، فالمسألة إذن من قبيل التعمد والقصد ومبررها عندي إيماني بقدرة الطفولة على الالتقاط "[16] ، وهذا لاينقص من قيمة تجربته الرائدة التي ستظل علامة بارزة في هذا الحقل المعرفي، بالنظر إلى ثراء تجربته وتنوع موضوعاتها وأغراضها، إلى جانب سماتها الفنية، يقول :" أطفالنا محرومون، يعيشون كالنبات البري، على الجفاف والعطش، وشعراؤنا لم يترجلوا يوما عن خيلهم الخشبية ليداعبوا طفلا بأنشودة ويصنعوا على ثغره أغنية وأدبنا العربي كاد يكون فارغا فراغا محزنا من أدب الأطفال، ومن هذه القناعة، بدأت بالذات أكتب للصغار، وأنقل همومي إليهم "[17]

وحتى يؤتي هذا اللون من الأدب أكله، وتُجنى ثمراتُه، ينبغي تجنب الكتابة العشوائية، غير المحددة، وغير الموجهة لسن معينة، واستحداث أساليب جديدة، من شأنها تفعيل أدب الأطفال في الأدب العربي عامة، وفي الأدب الجزائري خاصة، من خلال اعتماد معجم خاص بالأطفال والحرص على الصياغة الفنية المناسبة لهم، والتمييز بين الأدب الذي يخاطب الأطفال ، والأدب الذي يتحدث عنهم، يقول أحد الباحثين : " إن كتاب الأطفال يمكن أن يغير ذوق العالم، بل يمكن أن يغير العالم نفسه "[18]، ومن الكتاب الذين شغلوا أنفسهم بالكتابة في هذ الفن" زكريا تامر" الذي كشف عن البواعث التي حملته على الكتابة للأطفال، بقوله : " عندما جاءت حرب حزيران ونتائجها، ازداد ارتباطي بالواقع وصار أكثر حدة وصرامة، وابتدأت أنظر إلى الصغار نظرة مختلفة، إنهم الجيل الذي سيطلب منه أن يجابه عدوا شرسا، ولذا فلابد من منحه الوعي وإرادة التحدي والرغبة العميقة في التغيير والحفاظ عليه، لابد من أن يكون جيلا قادرا على التضحية في سبيل الحرية والعدل والفرح "[19]، وقد حاول" زكريا تامر" أن يرسي دعائم لهذه التجربة، ويجعل لها مقومات وخصائص، تميزها عن غيرها من التجارب الإبداعية، يقول:" لقد كتبت أكثر من مائة قصة للأطفال، وهي كما أعتقد تتناول موضوعات متنوعة، وقد حاولتُ فيها أن أجسد القيم التي أعتقد أنها جديرة بأن يتبناها الطفلُ...حاولت أن أمنح الطفل رقعة صغيرة من الأرض الصلبة يقف عليها، وتتيح له النظر فيما حوله بعينين قادرتين على اكتشاف من هو العدو ومن هو الصديق "[20]، ومن ثم فإن صناعة أدب الطفل هو مشروع حضاري يتطلب وعيا وثقافة وتخصصا واستراتيجية، تتناسب مع مع خصوصية الطفل ، على مستوى المعجم والنحو والأسلوب واللغة والصورة، لأن " أدب الأطفال مكتوب لمتلقين يمتلكون على الصعيد المعجمي

مجلد 13 عدد 2 أفريل 2021 السنة الثالثة عشر ISSN: 1112- 9751 / EISSN: 2253-0363

مخزونا لغويا محدودا من جهة، وقريبا من اللغة الدارجة من جهة أخرى "[21]

إن التأليف والكتابة في هذا التخصص أمر في غاية الصعوبة، إذ ليس كل أديب أو كاتب، أو مبدع بقادر على أن ينجح للخوض في هذا الحقل الوعر، وقد ذهب كثير من الكتاب إلى الإقرار بهذه الحقيقة، مثل توفيق الحكيم، وغادة السمان، ونجيب الكيلاني ولطيفة عثماني، وعبد التواب يوسف، وأحمد زرزور ... لذلك يفترض فيمن يتصدى لهذه المهمة، أ تتوفر فيه جملةٌ من المواهب والمؤهلات.. إذ لابد أن يكون ذا خيال خصب مجنح، خبيرا بهذا المجال، يمتلك القدرة على الإبداع، عارفا بنفسية الطفل ووجدانه، باعتبار أن الكتابة للطفل هي ضرب من التربية، وجنس من التهذيب، ونوع من التعليم والتثقيف، لذلك فإن من يكتب للطفل، قبل أن يكون شاعرا أو قاصا أو مسرحيا، هو مُربٍّ، وقد بيّنت البحوث والدراسات التربوية أن طبيعة الطفل النفسية، تنفر من أساليب الوعظ والخطابة والتوجيه المباشر، لكنها بالمقابل تستجيب للأساليب والأنماط الكتابية التي يمتزج فيها الخيال بالإبداع، والفن بالقيم، وتتفاعل مع كل ما من شأنه استنهاض الهمم وشحذ العزائم، وإثارة التفكير، وتحريك الأحاسيس، وهو الأمر الذي يستدعي التخلي عن اللغة الرتيبة في مخاطبة الطفل، واطّراح الأساليب الضحلة المفككة التي تولد فية السآمة والإحباط، إلى جانب استخدام ضمير المتكلم في الإنشاء والنظم، نحو قول الشاعر" محمد الهراوي :[22]

أنــاَ في الصُبح تلميـــــذٌ وبَعْــــدَ الظُّـهر نجّـــارُ
فـلـي قلَـــمٌ وقرطــاسٌ وإزميــلٌ ومنشــــــارُ
بمثــلي تخصُبُ الدنيــا بمثـلي تعمــُرُ الــدّارُ
فللعُلَمَــــاء مَـرْتَبــــَةٌ للصُنـّـَاعِ مقـــــــدارُ
أنــــا الـوَطَـنُ الغَــــالي فـدَائـي وَطَيَّـــــارُ
وَزَرّاعٌ وحَــــــــــدَادٌ وَفـَنّــــانٌ وَ بَحّـــــارُ

إلى جانب ذلك، ينبغي أن يراعي الكاتب الخصائص التقنية التي تستلزمها الكتابة في هذا الحقل من ذلك مقاسات الحروف وأنواعها، والاعتماد على الرسوم والصور والألوان والخطوط بوصفها آليات لإحداث التأثير، والإمتاع والإقناع، والتسلية والتعليم، وتنمية الوعي القومي والحس المدني والديني، ينضاف إلى ذلك ضرورة مراعاة الانسجام والاتساق في المعاني والأفكار والصور.

ومن المنظومات العذبة الخفيفة الشائعة في الوسط المدرسي، والتي تتردد على ألسنة الأطفال تلك التي نظمها " محمد الهراوي" وهي منظومة الطائر"، يقول[23]

الطّـــائرُ الصَّغيــرُ مَسْكَنُـهُ في العُـــشِّ
وَأُمُـــهُ تَطيــرُ تَأتي له بالقَــــــشّ
تَخَــالُهُ الطُّيُـورُ إذَا بَـدَا في الفُـــرْش
كَـأَنّـهُ أميـــرٌ يَجلـــسُ فَوقَ الـعَرْش

وكانت أشعارُهُ وأغانيه وأناشيدُهُ التي نظمها للمطالعة والحفظ والتسلية، ذات طابع تربوي تعليمي، يغلب عليها النصح والتوجيه والإرشاد، كما برز " كامل الكيلاني" في هذا المجال صاحب أول مكتبة عربية شاملة موجهة للأطفال، وقد أشاد " زكي مبارك " بتفوق" الهراوي والكيلاني" في هذا الباب، بقوله : " إن الاهتمام بالتأليف للأطفال يبرز في نواح بعيدة عن بيئة التدريس، فأشهر المؤلفين اليوم في هذا الباب رجلان: محمد الهراوي، وكامل الكيلاني "[24]

إن غاية مايهدف إليه أدب الطفل، وإن اختلفت أنماطه وأساليبه وأدواته وأجناسه، هو توسيع مدارك الأطفال وتنمية ملكاتهم، وغرس حب الاستطلاع في نفوسهم، وتحفيزهم على تحصيل المعارف، وزيادة ثروتهم اللغوية، وتدريبهم على الاكتشاف واستنباط الأفكار، واكتساب مهارات الدقة في الملاحظة، وتعليل الأحكام، والتمييز بين الأشياء، وإجراء المقارنات والموازنات، فيما يقرأه ويطالعه، الأمر الذي يؤصل فيه عادة القراءة والبحث وصحة التفكير وجودة التعبير، إنه " الآثار الفنية التي تصور

أفكارا وإحساسات وأخيلة تتفق ومدارك الأطفال وتتخذ أشكال: القصة ، والشعر والمسرحية والمقالة والأغنية "[25]، على أن تراعي هذه التجربة أيا كان الجنس الأدبي الذي يخاطب الطفل، نموه الجسمي والعقلي، بما يتيح له التكيف مع مختلف الوضعيات، والقدرة على التعامل مع المشكلات ، وإيجاد حلول لها، بما يحقيق توازنه العاطفي والنفسي، وهو إلى ذلك مشروع بناء نهضة اجتماعية وتحقيق تنمية ثقافية، وتأسيس جيل واع وواعد، قادر على حمل أعباء الحياة، والنهوض بتكاليفها، وأداء مسؤولياته، والقيام بواجباته متزن في تفكيره، سويً في تصرفاته وسلوكاته، إيجابي في علاقاته ومعاملاته، فعال في نشاطاته وأعماله، بل إن الاهتمام بأدب الطفل هو في حد ذاته عملية استراتيجية خلاقة، تستهدف استشراف المستقبل، وتعزيز دعائم الحاضر، واستثمار في الطاقات والقوى التي تجدد عزم الأمة وتخطو بها خطوات عملاقة في الركب الحضاري .

خاتمة :

لا شك أن عدم الالتفات إلى هذ الجانب، والانصراف عن الاهتمام بهذا الجانب الحسّاس من حياتنا، قد أورثنا هزيمة حضارية أخرى، تضاف إلى هزائمنا وأزماتنا الكثيرة، لاسيما أن هذا الجيل من الأطفال، لم يعد للآباء والأولياء والمدرسة دور كبير في تربيته، بعد أن بات التلفزيون ووسائل التواصل الاجتماعي، هي الوسيلة الترفيهية الأكثر حضورا وتأثيرا في الطفل، تلقينا وتدريبا وتقليدا، في ظل غياب الرقابة ، وعدم الشعور بالمسؤولية، وانحسار الوازع الديني وحالة التسيب واللامبالاة التي صارت تطبع سلوكاتنا ومواقفنا ومختلف معاملاتنا، وبسبب هذا الفراغ الرهيب تسلل البث الأجنبي، ليغطي الساحة العربية، الأمر الذي أدى إلى نتائج وآثار سلبية سيئة ووخيمة، منافية لقيمنا، على نحو مانراه من أفلام كرتونية مدبلجة والقصص المترجمة الموجهة للأطفال، وهي نتاج بيئات مختلفة عن بيئتنا حضاريا وعقائديا وثقافيا وفكريا وبات الأمر مدعاة للقلق والخوف على مستقبلنا وحاضرنا، بسبب حالة الانفلات والفوضى والتيه التي نعيشها، ومن ثمّ وجب حمل الأمر على محمل الجدّ، والمبادرة بصناعة أدب الطفل العربي من أجل تقديم مادة خصبة متنوعة تلبي حاجاته وميولاته، وتتناغم مع نفسيته وشخصيته، وتتفق مع البيئة التي أنبتته وتتسق مع قيم ومبادىء الحضارة التي ينتمي إليها دون تعصب ولا تقليد ولا انبهار.

إننا نُعلّمُ الأطفال، ونكتب لهم، ونضع بين أيديهم، وفي عقولهم ونفوسهم، مادة ماتعة بناءة خلاقة تعلمهم الجمال وتربي أذواقهم، وتنمي ملكاتهم ومهاراتهم اللغوية والنفسية والوجدانية، وتضبط سلوكاتهم وتوسع خبراتهم .

الهوامش :

1- فاروق عبد الحميد اللقاني: تثقيف الطفل، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، د ط ، 1991، ص121
2- جعفر عبد الرزاق :أسطورة الأطفال الشعراء، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1992، ص 14
3- عبد الفتاح أبو المعال: أدب الأطفال، دراسة وتطبيق، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 2009، ص 18
4- المرجع نفسه ، ص 19
5- مصطفى الصافي الجويني :حول أدب الأطفال، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، د ط، 1985، ص23
6- أحمد سمير:أدب الأطفال : قراءات نظرية ونماذج تطبيقية، دار المسيرة، عمان ، الأردن، 2009، ص 25
7- مصطفى الصافي الجويني : حول أدب الأطفال، ص65
8- محمد فؤاد الحوامدة: أدب الأطفال، فن وطفولة، دار الفكر، ناشرون وموزعون، ط1، 2013، ص 60
9- المرجع نفسه : ص 24
10- المرجع نفسه: ص 24
11- المرجع نفسه : ص26
12- ثناء الضبع :تعلم المفاهيم اللغوية والدينية لدى الأطفال، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر،2007، ص54
13- المرجع نفسه :ص 143
14- فوزي عيسى: أدب الأطفال، منشأة المعارف، الاسكندرية، مصر، 1998، ص 42

15- محمود إسماعيل: المرجع في أدب الأطفال، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 2008، ص 67
16- أحمد زلط: أدب الطفولة: أصوله ومفاهيمه ورواده، الشركة العربية للنشر، القاهرة، مصر، 1967، ص 83
17- جيروم ستونليتز: النقد الفني: دراسة جمالية فلسفية، ترجمة: فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط2، 1981، ص 255
18- عبد الله أبو هيف:التنمية الثقافية للطفل العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص32
19- المرجع نفسه: ص 33
20- عبد الله أبو هيف: أدب الأطفال نظريا وتطبيقيا، دمشق، سوريا، 1983، ص 158
21- محمد فؤاد: أدب الاطفال، فن وطفولة، ص48
22- المرجع نفسه: ص 149
23- أحمد زلط: أدب الطفولة بين كامل الكيلاني ومحمد الهراوي، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1994، ص122
24- المرجع نفسه: ص 124
25- المرجع نفسه: ص 137